



ميتافيزيقا وردة الرمل

منصف الوهايبى

حديثُ اللسان

م البدء كنت أبي وأمِّي
كانت الأشياءُ خرساً كلَّها
فشَقَّقْتُ من صمتي
لها أسْمَاءَها
- وأنا الذي سمَّيتُ نفسي دُونَهَا -
ونطقتُ بي وبها
وكنْتُ لسانَهَا
حتى أتى الأعرابُ من شعرائها
فَتَعَاوَرُوا كَلِمَاتِها زَمناً
وقد لبسُوا عليّ ضيَاءَها
باسمي أداروها على كُلِّ الذي شاؤوا لها
إلا على أسْمَائِها !

I

في لحاف المرأة الأخضرِ
أستذكرُ أشيائي
أرى البحرَ الذي يبدأ من حلمتها الضوءَ الذي
يصحو على أطرافها
لي طرقتُ تبدأ مني
خطأً أدخلُ أحوالي منه

|||

(أعبرُ بين ذرتي رملٍ إليك
كلُّ ضفّةٍ زبدٌ

أعبرُ في ذاكرة الحيتان
حيثُ كلُّ نظرةٍ طريقٌ لا يُحدّ).

|||

طرقتُ أطولُ من موتي

ولي :

أن أقطع الوردة من أجراسها
(أنفذ في عاداتها الحولية الخضراء)

أن أدخل ليل الشمس

(أعني ضوءها الأسود)

شيء منك كي أفهم لون الرياح
في مرسيّة.

امرأة عارية كالظلّ

أو مثل حصاة النهر ملساء

عسى أن نمحي في رسمه

أو في اسمه المحفور في لوح

على باب السماء !

كلّما قلتُ وصلتُ انطفأت نافذة،

واشتعلتُ أخرى !

(أهذا نصلُ برقٍ يجمع الليل إلى الظلّ

أم الوردة في مستوحش الصحراء

تسنّدي بصوّان الملوك!)

|||

كُلَّمَا قَلْتُ وَصَلْتُ انْطَفَأَتْ نَافِذَةٌ،

تَسْهَرُ فِي النُّورِ

وَلَا حُفَّاشَ يَسْتَفْتَحُ لَيْلِي

بِجَنَاحَيْنِ مِنَ الْمُحْمَلِ !

(هَلْ أَدْخُلُ؟)

يَأْتِي الصَّوْتُ :

- مَنْ؟! لا أَحَدٌ يَسْكُنُ هَذَا الْبَيْتَ !

- وَالصَّوْتُ الَّذِي...!؟!

- لا صوت ! هذا زمنٌ يعبرنا كالظلِّ

حَتَّى أَنَّنِي لَسْتُ...

لَكِي أَصْغِي لَهُ.

|||

بَيْتٌ بِبَابِ

وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ أَوْ يَخْرُجُ

هَلْ كَانَ إِذَنْ صَوْتًا مِنَ الْأَرْضِ؟

(أَلَمْ يَأْنِ لَهَا أَنْ تَسْتَحْيِي

مَنْ صَمَتَ مَوْتَاهَا؟ أَلَمْ...!؟)

أَمْ هِيَ أَصْدَاءُ ظِلَالِ

تَقْتَفِي آثَارَنَا؟

|||

(يَقُولُ ظِلٌّ نَهْدَهَا :

- وَفِي فَمِي لِسَانُهَا تُوَيِّجُ زَهْرَةَ -

لَقَدْ هَيَّأَنِي عُصْنِي

لَكِي أَكُونَ لَكَ.

وَعُصْنُهَا يَقُولُ :

كُنْ فِي دَوْرَةِ الْفَلَكِ

رِيحًا لِأَوْرَاقِي

وَكُنْ مَجْرَّةً لِنَجْمَتِي!

لَمْ يَبْقَ جِزْءٌ هَامِدٌ مِنِّي وَلَا مُسْتَقِيمٌ

إِلَّا وَحَلَّ فِيهِ مِنْ يَدَيْكَ شَيْءٌ.

كَيْفَ عَلِمْتَ يَدَيْكَ؟ كَيْفَ؟

حَتَّى صَارَتَا ذَاكِرَةً

لَفَرَوَةَ السَّنْجَابِ تَحْتَ سُرَّتِي؟
وَكَيْفَ صَارَتَا
لِحَلْمَتِي زَهْرَةَ الْحَوَاشِي؟!

|||

ما الذي توقظه الأجراسُ

في ذاكرة الوردة؟

لا شيء! سوى ريشي

لَقَدْ طَوَّحَ بِي فِي طُرُقِ نَاصِلَةٍ تَنْتَظِرُ

حَمَلْتُ مِنْ عَبْرُوا قَبْلِي

وَمَنْ لَمْ يَعْبُرُوا.

مَا الَّذِي تَوَقَّظُهُ؟

غَيْرَ وَصَايَا مِنْ مَرَايَا

أَنْ أَنْ تَطْوِي جَنَاحَيْهَا عَلَى مَا ضَاعَ !

لَا اسْمَ وَلَا رَسْمَ

لَمَا يَفْلَتُ مِنْ أَشْيَانَنَا

|||

أَسْأَلُ الْوَرْدَةَ :

- ماذا يصنع الموتُ بنا؟

- يفتحُ أبواباً ولا يغلقها

يغلقُ أبواباً ولا يفتحها

|||

ومن الوردة يمتدُّ طريقان إلى الصَّحراءِ

(من أيَّهما نمضي؟)

ومن أيَّهما نرجع؟)

والوردة في آخر برق هيأت منزلها

وانتصبتُ تستطلع الأفق..

(ستأتين من الليل الذي يهبطُ

في La puerta Falsa

تَمَلًّا...

من ليلنا يصعدُ في ليل بلنسية

حيث الصمّتُ لا ينقصه صوتٌ ولا جرسٌ.

تكونين ملاذاً للخطأ!

أَثْرَى تَأْتِي مِنَ اللَّيْلِ الَّذِي لَمَّا يَجِيءُ؟
يَسْحَبُنِي الْحَلْمُ مِنَ النَّوْمِ.
سَمَائِي حَجْرٌ بَيْنِيهِ حَبْرُ اللَّيْلِ.
لَيْلٌ أَمْ حَلِيبٌ فِي يَدِي أَسْوَدٌ؟
بَحْرٌ تَمَلُّ بِالْمَاءِ
أَمْ ظِلُّ جَنَاحِ أَبْيَضِ الرَّيْشِ؟
(هَلِ الْأَشْيَاءُ تَمْضِي أَمْ تَجِيءُ؟)

|||
(أَنَا الَّذِي أَعِيشُ فِي أَصَابِعِي
أَقُولُ كُلَّ لَيْلَةٍ بِمَيِّتِ النُّجُومِ
يَسْتَضِيءُ هَذَا اللَّيْلُ.
كُلَّ لَيْلَةٍ أَهْبَطُ فِي لَيْلِكَ لَا أَلْقَاكَ.
كُلَّ لَيْلَةٍ أَحْفَرُ فِي حَائِطِهِ ظِلِّكَ
كَيْ أَنْسَاكَ. كُلَّ لَيْلَةٍ أَبْدَأُ حَيْثُ أَنْتَهَيْتُ.
لَا شَيْءَ مِنْ لَيْلِكَ فِي يَدِي
إِلَّا خَطَأٌ أَبْيَضٌ قَدْ أَسْمِيئُهُ الْمَوْتَ
وَوَظِلٌّ نَائِمٌ بَيْنَ أَصَابِعِي!)

|||
يَتْرِكُ الْحَلْمُ مَفَاتِيحَهُ لِي.
هَلْ أْبْلَعُ الْبَيْتَ (الَّذِي أَصْحَبُهُ)
هَلْ أْبْلَعُ الْمَوْتَ (الَّذِي يَصْحَبُنِي)
فِي حَجْرٍ يَسْتَوْهَبُ اللَّيْلَ
وَوَظِلٌّ يَنْسَخُ اللَّيْلَ حَجْرٌ؟!

|||
وَرَدَةُ الرَّمْلِ الَّتِي أَسْمِيئُهَا شَاهِدَةً
كَانَتْ ضَرِيحًا (تَوْلَدُ الصَّحْرَاءُ فِيهِ وَتَمُوتُ).
مَمَكْنٌ أَنْ أَعْلِقَ الْبَابَ إِذْنُ!
أَنْ أَخْدَعَ الْمَاءَ الَّذِي يَغْسِلُهَا
أَنْ أَخْدَعَ الشَّمْسَ الَّتِي تَطْفُوها
أَنْ أَخْدَعَ الرِّيحَ الَّتِي تَقْبِسُ مِنْهَا
زَهَبًا أَوْ وَرْقَةً
مَمَكْنٌ أَنْ أَسْكَنَ الْمَوْتَ الَّذِي يَسْكُنُ

ليلَ الوردِ المنغلقة !

|||

بابلُ الصمّتِ نشيدي
عطشي من عطش الضوء
أنا العائدُ من صحرائك الأولى
إلى صحرائي الأولى
ولا شيء سواها !
وردةُ الرمل التي أطرقُ
لا تفتحُ باباً للغريب
(أو لا بُدَّ إذن من سفرٍ كي لا نغيب؟!)
للصدى لظفرُ
(سنعدو كلماتي مثلما في البدء أجراساً)
ولي أن أكتب الآن على جلد الصدى:
- حسرةُ التبّع الذي يخذله الماءُ
فلا يستكمل المجرى إلى وردته.
- صوتك الصاعد في ليلِ بلنسية
كالنهر إلى ذاكرتي.
- جسمك يطوي ظلّه جرسَ حرير.
- لطحّة الوردِ في La puerta Falsa
- شجرَ السرّو على أطراف قرطاجنة
يستقبل الغابة..
أو يُحصي عفافير الصباح.
ثمّ ظلّ يحمل الليل إلى أشياءنا
شبحُ أبيض يجري
بخطى الضوء إلينا.
(أهو الموت الذي ليس يُقاس؟)

|||

ليس لي ذاكرةُ النخلة
كي أشتقّ لونين لأشياءني
فلا أصفر
للريح التي تربطها
من وردة الرمل إلى الصحراء

لا أخضرَ
للظلِّ الذي يرْسُمُ في الأرضِ
تقاليبَ النَّهارِ!

II

في لحافِ المرأةِ الأبيضِ لا حكمةَ إلاَّ
حكمةَ السَّيَّانِ .
هل كنتِ أرى الرَّمْلَ الذي يبدأ من حلمتها ... الضَّوِّءُ
الذي يغفو على أطرافها ؟
لي طرقٌ تبدأ منها
خطأً تدخل صحرائي منه .

|||

بعيون النَّخلِ تستقبلنا الصَّحراءُ
فلندخلُ إليها !
كلُّ ظلٍّ هو أعمى .
كلُّ غصنٍ عينٌ ماءً .
سنرى الأشياءَ في أسمائها تنزفُ :
(لا الوردُةُ تدري أنَّها الوردُةُ ...
لا الشَّمْسُ التي تعرج في الكتبانِ تدري
أنَّها الشَّمْسُ ...
ولا الصَّحراءُ نستهدي إليها بخطى عمياء
تدري أنَّها الصَّحراءُ ...
لا أنتِ على مفترق من طرفي أنتِ
- وهذا الحبُّ فصلٌ خامسٌ بين خريفٍ وخريفٍ -
لا أنا فيكِ أنا !)

|||

ينطفئُ الضَّوُّءُ
ويبقى صوتُه الأبيضُ
مأخوذاً بصمت ما ...
وها ظلك في ناحيةٍ من بيتنا السَّاهرِ

في مرسية يمطرُ ...
والوردةُ في مستوحش الصَّحراءِ
تستيقظُ في غيبَتِها .

|||

(بمسحة من زهرة الحواشي
كانَ مصارعُ الثيرانِ
يستدرجُ الثورَ إليه /
كنتُ في شهقتها
أسمعني .

فكلُّ ما أمسحُه بزهرة الحواشي
يُشبهُها
وكلُّ ما تلمسُه بإصبعِ الثيرانِ
يشبهني .)

|||

أتخفى خلف مرآتك
(والوردةُ تابوتٌ من اللحمِ .)
أهذا فلقٌ أبيضُ
أم إسفنجةٌ تجترُّ مائي؟
شجرٌ من مطر
أم جسدٌ (سَوَّاهُ) من ذاكرةِ الوردةِ والعصفورِ
يزكو في سريري كيفما شاءَ
ويمضي ويجيءُ؟
ويدُّ من برتقالِ الشَّمسِ في مرسيةٍ
تفتحُ ليلَ الأبنوسِ
ويدُّ منك تضيءُ .
وأنا منزلقٌ ما بين عشبٍ وحجارٍ
(حيثُ جلدي ينطوي
والصَّمْتُ يطوي صمتهُ
حيثُ لا حكمةُ إلا حكمةُ النَّسيانِ)
أستذكرُ أشياءي
ومن خلف زجاجِ اللَّيلِ
يجري بخطى الضَّوءِ إلينا

شبحٌ أخضرُ
(لَمْ نُحْصِ حُطَى المَوْتِ)
فهل كُنَّا إِذْ نَصْغِي لَهُ ؟)

|||
(أَوَّلُ مَا يُشْعَلُ النَّوْمُ
عيوننا التي نسهر في ظلالها
آخرُ ما يُطْفِئُهُ المَوْتُ .
فأسُدلي عليّ منك ...
من ستائر النسيان !
- لا أحدٌ يلتقط الليل الذي
يهبط في أشيائنا -
وليكُن المَوْتُ الذي قاسمَني
أَوَّلَ مَا يَبْيِضُ
أو يخضرُّ في الأكفان !)

|||
طرقٌ تمشي بنا .

ولنا :

- أحلامنا محفورةٌ في لوحِ غيمٍ
بانتظار الرِّيحِ
أو في لوحِ ريحٍ
بانتظار الغيمِ
نمضي قبل أن نقرأها .
- ظلُّ نجمٍ كلما استوهبهُ الليلُ تأبى
فهو للماء .
- متاهةٌ كلما عمى علينا طرفاً
شقت الوردة منا طرفاً .
- نخلةٌ من يدها تبتدىء الصَّحراءُ
(أعطيها الذي تسألني : اسمي)
- يدٌ تمشي إلى الماء بنا
ويدٌ تمشي إلى الشَّمسِ بنا .
- وردةٌ الرَّمَلِ التي تشبهنا
تصعد من تابوتها .

(ليس إلا قبرها الفارغ جرحاً
نازفاً في الرَّمْل) .
- كَلْسٌ .. حَجْرٌ أَزْرَقٌ .. صَوَانٌ لَهُ
أَجْنَحُهُ الطَّيْرِ التي توقظه كلَّ صباحٍ
- شَجَرٌ النَّوْءِ على الأرض .
(أهذا ظِلُّهُ أم اسمُهُ المحفورُ فينا
يتدلَّى نحونا
أم أنت في ماء المرايا
توقظين الرِّيحَ في رملِ يدي ؟)
ماذا أرى ؟
- جِسمك يطوي ظِلَّهُ جِرسَ حَرِيرٍ ؟
- صوتك الصَّاعِدَ كالنَّهْرِ إلى ذَاكَرَتِي
- جُزْراً أم حُلْمَ بَحْرٍ تَمَلُّ ؟
- نافذةٌ عَمِيَاءُ ؟
- طَاقاً رُخْفِيّاً ؟
- شَبْحاً يقطعُ ليلَ القِيروانِ
بخطى الضَّوءِ إلينا ؟
- سَرَبَ نخلٍ يفتفي آثارنا
أم بَيْلسانٌ ؟
- سِرْوَةٌ تُحْصِي عِصافيرَ الصَّبَاحِ ؟
- لَطخةُ الوردِ في البُلُورِ أم سطحاً
من الطَّبشورِ لِلطِّفْلِ الذي كُنْتُ ؟
(أَرَاهُ واقفاً بِالْبَابِ)
يدعوني (ألا نَعَجَنَ هذا الأفقُ ؟
ما زالتْ لَنَا أَجْنَحُهُ تَمْحُو ...
مناقيرُ لِكِي نكتبُ
ليلَ الوردِ المنغلقة .)
|||
كلماتٌ أم فراشاتٌ إذن ؟ !
كلِّما أثمَلها الحَبْرُ تَدَنَّتْ
واستكثتْ في رَمادِ الورقة .
(أَعْبُرُ بين ذرَّتِي رَمَلٍ إليّ ...)

كلّ ضفّة مداد .
وكانت الوردة في وحشتها
تخيط من وحشتها أياماً
تتوجّ الصحراء مرّة
ومرّة تلون الرّماذ . (

III

فسيفساء إيقاعيّة : هي / هو

هي :

- الليل ؟

هو :

- امرأة حبلى بالشّمس .

هي :

- الليل في مُرسيّة ؟

هو :

- طفولة النّهار .

هي :

- الأبنوس ؟

(ألم يقل .. يفتح ليل الأبنوس ؟ !)

هو :

- صنوبر يزكو بثمرّة العنب .

هي :

- الفجر ؟

هو :

- ظلّ ورماد .

هي :

- الجزيرة ؟

هو :

- حُلم بحرٍ ثملٍ بالماء .

هي :

- البحرُ إذن ؟

هو:

- الرَّاءُ جَرَسُ المَاءِ يَجْرِي بَيْنَ بَيْنٍ

هي:

- حَسَنٌ! والبَاءُ؟ (كانتُ شفتي تسأله ورَدَتْها)

هو:

- صَدَفٌ مَنفَتَحٌ حِيناً

وحِيناً حَجْرٌ مَنغَلَقٌ .

هي:

- الحَاءُ؟

هو:

- لَيْلُ البَحْرِ يَطْوِي لَيْلَهُ .

هي:

- الحَرْفُ؟

هو:

- ظِلُّ الصَّوْتِ ... أَوْ قَوْسُ الصِّدْيِ .

هي:

- الاسْمُ؟

هو:

- حُلْمُ الحَرْفِ .

هي:

- الصُّورَةُ؟

هو:

- حَلْمُ الاسْمِ .

هي:

- الصَّحْرَاءُ؟

هو:

- ماءٌ .

هي:

- مَنْ تُرَى يَسْبِغُ فِيهِ؟

هو:

- عَطَشِي .

هي:

La puerta Falsa ? -

هو :

- بائِكِ الخاطِئِ ءِ .. لو أُبلِغُهُ !

هي :

- مُرْسِيَّةٌ ؟

هو :

- حَسْرَةُ النَّبِّعِ الَّذِي يَخْذَلُهُ الْمَاءُ
فلا يَسْتَكْمَلُ الْمَجْرَى إِلَى وِردَتِهِ .

هي :

- الْقِيروانُ ؟

هو :

- زَمَنٌ يَشْبُهُهُنِي .

هي :

- وِردَةُ الصَّحْرَاءِ ؟

هو :

- أَنْتِ .

هي :

- ماذَا يُسِرُّ الْحَبْرُ لِلْبِياضِ ؟

هو :

اللِّغَةُ الْخِرسَاءُ .

هي :

- (ما تَجْهَلُ الْحُرُوفُ) ... الْمِرْأَةُ ؟

هو :

- أَرْضُ ما وِراءَ اللَّيْلِ .

هي :

- أَيضاً ؟

هو :

- شَجَرَةٌ !

(بَعَادَةُ حَوْلِيَّةِ خِصْرَاءِ) .

هي :

- الْأَغْصَانُ ؟

هو :

- حبالٌ صوتيةٌ .

هي :

- الثمراتُ ؟

هو :

- حروفٌ تتدلى .

هي :

- الظلُّ ؟

هو :

- رمادُ الضوءِ .

هي :

- إذنُ ! أيُّ بيتٍ لظلِّ الملاكِ الذي

يتنزلُ في الليلِ ؟

هو :

- أغنيتي .

هي :

- بمَ يحلمُ تمثالُ لوركا ؟

(أذكر حين وقفنا به ؟

كان ظلِّي إلى ظلِّه .)

هو :

- أن تحطَّ عليه العصافيرُ

حتى يطيرَ بأجنحةٍ من نحاسٍ .

هي :

- بمَ يحلمُ قوسُ قزحٍ ؟

(كان يرقد كلَّ خريفٍ

على كتفِ الجامعِ الأغلبِ .)

هو :

- أن أعلّقَ في جرسٍ منه ... في عروةٍ ...

ظلُّ أغنيتي .

هي :

- ماذا تسأل في هذا الليلِ الأندلسيِّ ؟

هو :

- صاعقةً !

حتى أشحذ ذاكرة الصَّحراء
في وردة رملٍ أو في حبة رمل ...

هي :

- أيضاً ؟

هو :

- صاعقة !

فأرى عشباً أبيضاً في زبدِ الفخدين

هي :

- أيضاً ؟

هو :

- صاعقة !

فأرى حبة ملح سوداء

تتورّد في ظلّ النّهدين

وأرى ماءً يسهر في الماء .

هي :

- الموت ؟

هو :

- طاق زُخرفي في جدار ...

نافذة عمياء .

هي :

.....

هو :

.....